الخطايا العشر

هناك عشر خطايا اجتماعية ينبغي علينا أن نقضي عليها بالقضاء على بواعثها . فاذا أطعنا نحن الى السلام ، واذا أطعتنا نحن الى الدماء والحرق والدموع

العالم في مخاض . أما ما ستلد الأيام فذلك سرٌ مُغَيَّب في جوف المستقبل . يشعر الناس شعوراً خفيًّا بأن من وراء المظاهر المدنية القائمة داء دفين ينخر في نظام الجماعات ، ويفكك من تماسكها ، ويحلل من روابطها التي أضفت عليها التقاليد ثوباً من القداسة ، تلك القداسة التي حملت في أسسها العتيقة معاول التطور الانساني .

لو أن الانسانية استطاعت أن تساير الخطى التطورية التي سار فيها العقل ومضى فيها العلم ، ولم تقف عند الحد الذي أراد السياسيون وقادة الامم من محترفي الحكم ان تقف عنده ، إذاً لكان شعورنا بما ينتظر الجماعات من مشكلات المستقبل القريب أميل الى التفاؤل . ولكن العقل الفردي والعلم ، وهما من الخصائص الفردية ، قد سارا بخطى واسعة لم تستطع الجماعات أن تتابعها ، والجماعات هي ما نعلم تكويناً وفطرة ، فعقليتها أقل تقبلا للتجديد وأعمى عن فهم الحقائق وأعسر قياداً وأقل ليناً ، وأبعد عن مرونة الأخذ والعطاء

لهذا سارت الجماعات تتخبط في ليل مدلهم من الرغبات المكبوتة والآمال المقموعة والشعور بالحاجة الى التغيير ، ومسايرة خطى العقل الفردي . فاذا همت بالمسير عاقها الفقر وسدّ طريقها الظلم ، وقامت ميول أهل السلطة ترد الجماعات عن التطور حذر أن يبدل التطور نظام الجماعات ، فتزيح من طريقها تلك السدود التي تستند اليها سلطة ذوي السلطة من السياسيين والاتوازيين والدكتاتوريين ومن افضّ لفهم من أصحاب المصالح المادية التي لا يتحقق لها وجود ، الا وعلى عين الجماعة قناع من الاوهام والخيالات ، وفي قدميها أغلال من الزيف والفوضى .

لا سلطان لأهل السلطة على العقل الفردي . فالعقل الفردي طليق . يفكر كيف يشاء

ويسبح في مفاوز الكون ، ويتبوأ من رحاب الوجود أي متبوإٍ أراد . انطلق العقل الفردي منذ أقدم الازمان، محلقاً في ظلال الغابات وفي رؤوس الجبال وفي الصحاري والوهاد واليابس الملس والمفاوز الخشنة ، وفي الدير والمسجد ، وفي المدرسة والجامعة . وتابعه العلم والفلسفة والفن . فطار الانسان بعقله وما فُتِّق له عنه من فنون المعرفة وضروب الصناعة ، في آفاق بعيدة قصية ، وتطلع من ورائه بعين الفرد الحر الطليق ، فاذا به يرى الجماعات ما تزال واقفة في أول الطريق وقد تراكت أمامها الصعاب والمشكلات ، ووقفت أوهام العقلية الضمامية تذودها عن السير في طريق الارتقاء ، كما وقف في طريقه الظلم والشهوات والبغض والانانية ورذائل الخلق والمطامع الاشعبية ، يؤيدها في ذلك ما سببت من فقر وجوع وجهل وحروب وثورات .

وفي الحق ان الجماعات عاجزة عن التفكير لذاتها . فالجماعة تفكر بعقل الفرد . وعقل الفرد يحاول دائماً ان يجذب الجماعة الى أعلاه ، وينهض بها الى السماوات التي ارتفع اليها . ولكن العقلية الضمامية تسد عليه الطريق وتفسد عليه جهده ، كلما عمل على رفع مستوى الانسانية . فالواجب الاول على العقل الفردي أن يعمل على قتل أوهام العقلية الضمامية أول شيء ، هذا إذا أراد أن يكون لجهده أثر مرموق في نظام الجماعات .

ولاذا كان للعقلية الضمامية أوهام عاقت الجماعات عن الانبعاث في سبيل التطور ، فان هذه الاوهام قد أدّت بدورها الى خطايا خلقية ، عمل السياسيون ومن اليهم على تغذيتها وتنميتها لتظل غُلاً في عنق الجماعات يعوقها عن التحليق في آفاق الحرية الواسعة فتتقارب وجهات النظر بين الامم وتحترم المصالح والمبادىء القدسية التي لا ينبغي أن يكون للاجتماع الانساني غيرها أساساً ودعامة : مبادىء السلام والحرية والاخاء والمساواة في الحقوق وحق الاختيار في نظام الحكم الذي يوافق مزاج كل أمة من الامم .

هذه الخطايا العشر التي عاشت الجماعات في أسرها طوال القرون السالفة وكانت غراس الاوهام التي تمكنت من العقلية الضمامية ، منها ما يتعلق بالنظام المدني الذي نعيش في كنفه ، ومنها ما يتعلق بالخلق الاجتماعي ، الذي كان وما يزال طابع الامم والجماعات .

الخطيئة الاولى : أسلوب التناول

في وجهة النظر تختلف اختلافاً كبيراً عند الامم وعند الافراد . فهنالك نظرة جزئية تريك من الشيء جزؤه ، وهنالك نظرة كلية تريك من الشيء اجزاؤه مفردة ومجتمعة .

ولقد عمل السياسيون وزعماء الامم جميعاً على أن يوجهوا الشعوب الى الأخذ بوجهة النظر الجزئي في كل ما يتعلق بالسياسة والعلاقات التي ينبغي أن تقوم بين الأمم . ذلك أنّ النظرة الكلية في أمور السياسة والاجتماع إذا تمكنت من عقلية الشعوب سادت فكرة السلام حتماً، وتقاربت الأمم وعرفت المصالح واحترمت الحريات وساد الاخاء وتوحّدت الإرادات الاجتماعية بالقطع في أمور الدول ، ومال محور السياسة نحو العمل على التقريب بين الشعوب والاعتراف بحقوقها في الحياة الحرة المنتجة . وعلى العكس من ذلك سادت سياسة الانتهازيين والوصوليين من قادة الأمم، فجرّوا على المجتمع الانساني ما نرى من كوارث الحرب والثورات. هذا بالرغم مما تغني به السياسيون طوال عصوره من حدبهم على خير الانسانية . ولكن السياسيين بحكم صناعتهم ، كالشعراء ، يقولون ما لا يفعلون ، ويتشدقون بما لا يعتقدون .

الخطيئة الثانية : تأثر الفكر الفردي بنقائصه دون كمالاته

من نقائص الفكر الفردي تأثره الى حدّ ما بالظّلاّمية الفكرية ، فيقف إزاء بعض الحقائق المتعلقة بتطور الجماعات جامداً لا يتحرك ، وتنعدم فيه قوة الابتكار والقدرة على مواجهة الحقائق، وإن أدرك أنها كائنة . ويرجع السبب في ذلك الى أن فكر الفرد قد يتأثر من طريق العجز عن مواجهة الحقائق والاعتراف بها ، فيخشى مواجهة الجماهير بما يتصل بأسباب كثيرة من مقومات حياتها ومسببات رقيها وركودها ، فيكون عاملاً من عوامل التوقف عن مسايرة خطى التطور الطبيعي . وقد يعود أكثر السبب في ذلك الى ما تحوط به الجماعات تقاليدها ومعتقداتها من صنوف القداسات، التي لا أصل لها إلاّ أن القِدَم قد أضفى عليها تلك الصفات .

ولقد أشار الى ذلك الاستاذ ألكسيس كارل في كتابه « الانسان : ذلك المجهول » ، حيث أبان أن العلوم قد تقدمت انسان الطبقة الوسطى وفاقت كل العلوم مداركه، ولم يبق فيها ثابتاً غير متقدم الاّ علم الانسان نفسه . فان علم الانسان ظلّ وراء كل العلوم كالفلك والاحياء والطبيعة والكيمياء . هذا بالرغم من درجات التقدم التي سايرت فيها الانسانية . فالانسان ظلّ وما يظل جاهلاً عاجزاً عن ارضاء حاجاته الاولية ، وغاية ما أن العلماء قد عجزوا عن تنظيم حياة الانسان بنفس الدقة التي استطاعوها في تنظيم مجال بحوثهم العلمية . فالانسان مهما تعلّم وارتقى، تجد فيه، بالرغم من ذلك، آثاراً من حياة أسلافه الأول، حياة الوهم والاساطير والخرافات ، والعجز عن إدراك الحق وإن تبلج ضوءه وسطعت حججه

الخطيئة الثالثة : تشابك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية

تلك وراثة اجتماعية . فان الجماعات قد خرجت من خطوبها الاول بنظام اشتركت فيه المصالح والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حتى أصبح من المتعذر على أي مصلح أن يمس ناحية منها بأي تغير تقتضيه الظروف المحيطة بالجماعات ، من غير أن تضطره طبيعة هذا النظام أن يمس بقية النواحي . والى هذا يعزى السبب في اخفاق كل الجهود التي رمت إلى السلام ، بل إنه هدد السلام نفسه ، وكاد يحدث في العقلية البشرية نزعة إلى اليأس من أن يسود السلام أو يكون للسلام أثر في سياسة الامم والشعوب ، أو فعل ناجع في اتجاه الدول من حيث علاقاتها بعضها ببعض .

الخطيئة الرابعة : المصلحة الذاتية

تنسينا المصلحة الذاتية ومركزنا الاقتصادي دائماً ، عاملاً من أهم العوامل المؤثرة في علاقة بعض الطبقات ببعض . فان صاحب العمل وحامل الأسهم والتاجر في رأس المال ، وهم من الطبقات ذوات العلاقة المباشرة بالانتاج العائد في مجموعه الى أكبر عدد من أفراد الأمة ، يغفلون دائماً عن « العامل الانساني » في حياة الجماعة ، فينظرون دائماً في كل ما يتعلق بالنظام الاجتماعي من زاوية واحدة ، زاوية المصلحة الذاتية . ينسون طوعاً أو كرهاً ، ما سيطرت عليهم قوة الانانية ، ان المخلوقات التي تعمل في سبيل الانتاج ، انما هي مخلوقات بشرية لهم حاجات وفيهم أرواح تحس ، ولهم مشاعر تتأثر ، ولهم أسر وأولاد يحتاجون إلى التربية والتنشئة والتعليم ، ليصبحوا عوامل ذات أثر مفيد للمجتمع .

ولقد بلغ الجهل ببعض ذوي السلطان في طور مّا من أطوار التاريخ ، حد أن « العامل الانساني » فيهم قد تجرد من كل معنى مثالي . كما بلغ في حالات أخرى حداً فضحاً من الاستهتار المؤيد بالغباء . فان الشعب الفرنسوي في ثورته المشهورة ، قد ثار جائعاً يطلب الخبز لا أكثر . فلما علمت الملكة ماري انطوانيت بسبب الثورة ، قالت اطعموهم فطيراً .

أما إذا ضعف الشعور بالانانية ، فلا شك في أن « العامل الانساني » يتسامى وتثبت أصوله ، فيُقضى من طريقه، على كثير من مفاسد هذا المجتمع .

الخطيئة الخامسة : الشهوات الانسانية

كلنا يعرف قولة الحكيم أفلاطون المشهورة : « الشهوات تطمس الحق » . فاذا أردنا أن نرعى الحق وأن نوزع العدالة على كل الأفراد بالقسط في مجتمع مّا ، ابتغى الذين في

يدعم القدرة أن يتحرروا من كل الشهوات التي تصم آذانهم عن تلك الصرخات الداوية التي تخرجها حناجر المظلومين الذ كرلة حقوقهم المداسة أقدامهم ، وأن يعملوا دائماً على النظر في قضايا المجتمع نظرة حرّة بعيدة عن التأثر بتلك القوالب الفكرية الضيقة التي تثير الشهوات وتغشى على العقل بغشاوة الموروثات والتقاليد .

الخطيئة السادسة : ميوعة العبارات

للكلمات حدّان . وقد لا نخطىء كثيراً إذا قلنا إن للكلمات حدوداً نحوّر معانيها بطريق الاستعمال . ومن هذا الطريق ورثنا سوء الفهم من الجيل الماضي . أما وقد عرفنا أننا ورثنا ذلك الميراث الخبيص من الذين نشّئوا تلك الجهالات ، فإن أول واجب على المصلح الاجتماعي أن يطلب التحديد في معنى الكلمات ، بحيث يصبح للعبارات الاجتماعية دقة المصطلحات الرياضية . ولا ريبة في أن هذا وحده ، كفيل بأن يبعد من أفق المجتمع البشري كثيراً من أسباب التناقض ، والازدحام بكثير من المعاني المتضاربة التي تخلط الذهنية العامة ، وتدفعها في طريق الثورات بغير أهداف معينة .

الخطيئة السابعة : التخليط في تعيين المشكلات الاجتماعية

وهذا سبب من أخطر الأسباب التي تقود إلى الفوضى . ولاشك عندي أن التخليط في تعيين كل مشكل اجتماعي باعتباره وحدة لها قوام ذاتي ، بصرف النظر عن علاقته بغيره من نواحي النظام السياسيّ ، كان السبب في نشوء تلك النزعات المتطرفة وأخصها العدَمية والفوضوية وما اليها من نزعات الهدم والتخريب. فإن العقل الانساني بطبعه إذا ضلّ وتاه وتخالطت قواه المفرقة بين المعقولات ، خبثت قوته ، وتسلم زمام النفس البشرية غيره من القوى الدنيا ، فينزع الانسان بطبعه وبحكم ذلك الظرف ، إلى تحطيم كل وَلاَية من الولايات الاجتماعية ، وأولها وَلاَية التشريع ، إذ ينسب اليها القوة التي تنتزع بها وَلاَية التنفيذ وحفظ النظام . ولا شك في أن ترك الذهنية العامة نهباً لهذا التخليط ، خطيئة من أعظم الخطايا التي يرتكبها أهل هذا الزمان .

الخطيئة الثامنة : المساومة

أول ما يفد إلى ذهنك من الخواطر إذا ذكرت معنى المساومة في سياسة الاصلاح الاجتماعي ، ان هذا الخط من التفكير يفسد أول ما يفسد : « تعادل السلام » .

إذا جدّت مشكلة من مشاكل السياسة ، أو تكونت نزعة اجتماعية من النزعات التي كثيراً ما يقتضيها التطور الطبيعي ، ونزعت السلطات إلى حلها بطريق المساومة ، فاعلم علم الموقن الثابت في يقينه ، ان حاجة السلام قد ضحى بها في سبيل الوصول الى حلول موقوتة تسكن لوعة الداء ، ولكنها لا تستأصله . واعلم فوق ذلك ان كل الدماء المهراقة في الحروب ، وكل الخبائث التي لازمت قيام الثورات والانقلابات الاجتماعية ، كان هذا منبعها : مساومة تنسيك فضائل السلام . وما ذلك إلاّ العمل الفاشل . عمل لما هو زائل ، ونقض لما هو باقٍ ثابت .

الخطيئة التاسعة : روح التفرقة

أصحاب المصالح في العالم فريقان : دول ذوات مصالح عامة ، وأفراد ذوو مصالح ذاتية . فاذا ظلّ هؤلاء مستمسكين كلاً بمركزه ، فنشدت الدول الاحتفاظ بمركزها في التفوق حتى الدرجة التي يصبح فيها ذلك التفوق غير ضروري للاحتفاظ ببقائها ، وسعي الأفراد الى الاستقراء على الطبقات المشتغلة في المجتمع ، وقفنا حيث نحن ، شاعرين بأن بعض الدول لا بد من أن تتسمح في شيء من تفوقها اقتصاديًّا أو سياسيًّا أو غير ذلك ، وان بعض الأفراد لا بد لهم من أن يذعنوا الى ضرورة التنازل عن شيء من امتيازاتهم . واذن فلا بد من تضحية ، ليتزن بناء المجتمع .

الخطيئة العاشرة : اختلال القوالب الاقتصادية والسياسية

والسبب في هذا الاختلال عجز الأفراد والجماعات عن النظر في الحياة الجديدة نظرة دولية ، تختلف كل الاختلاف عن النظرة القديمة التي تغشاهم اليوم . لقد انقلبت الحال فتطورت الحياة وتغيرت قيمها . فكل القيم القومية القديمة قد حلت محلها قيم دولية شعوبية جديدة . ولقد تم هذا التطور لاشعوريًّا ، حتى أن الناس اليوم يعيشون في نظام دولي ، ولكنهم يفكرون بذهن قومي . وإذن ينبغي لنا أن نعمل على أن نقضي على ناحية التفكير القومي لإيسار الفكر ، الذي هو العامل الأول في تنشئة النظامات الاجتماعية ، مقتضى الحال في الحياة الدولية التي نحياها .

***

هذه خطيئات عشر ، يلزمنا أن نقضي عليها بالقضاء على بواعثها . فاذا قضينا عليها فنحن الى السلام ، وإذا عجزنا عن ذلك ، فنحن الى الفوضى ، بل الى الحضيض ، الى الدماء والعرق والدموع .